الوسائل الناجعة في الإصلاح الاجتماعي

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة المحامي

كثر استعمال لفظي الإصلاح الاجتماعي منذ إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية، حتى وهم معظم الناس أن هذه الوزارة مضطلعة بكل أعمال الإصلاح الاجتماعي، وظنوا أن الاصلاح إجراء مادي كبناء دار، أو فتح مستشفى، وحسبوا أنه لا يقوم إصلاح الا عن يد هذه الوزارة، وأن في مجرد انشائها وتمويلها بالموظفين والمال والمستقر، كفاية لجني ثمار الإصلاح المنشود. ولكن في هذا الظن، وفي هذا الحسبان، وذاك الوهم، مبالغة كبيرة. وإن واجب الوزارة المذكورة محصور في أن تحقق فكرة قومية، وهي أن التنفيذ الواجب لإخراج أي مشروع من حيز الرأي الى حيز العمل قد ثبت صلاحه، أصبح في مقدور جهة معينة من جهات الحكومة، وهذا تقدم كبير على الماضي. فعلى حضرات المسئولين في هذه الوزارة، والقادرين على الكتابة والخطابة، أن يجلوا غوامض هذه الوظيفة ويوضحوا الاختصاص ويحددوا مجال العمل والقدرة عليه، بكل الوسائل الممكنة. ذلك لأن الاصلاح عمل معنوي محض، يقوم أولا على العقول الراجحة وقدرة النقد وإفراغ الأفكار في قوالب واضحة ثم دراسة أحلاق المحتاجين للإصلاح ثم تلو هذه الخطوات خطوة أخيرة وهي درس وسائل التنفيذ والتطبيق.

ويجب أن نعلم أن الإصلاح الاجتماعي لا يتم في يوم أو شهر أو عام، بل يبدأ به كزرع الأشجار التي يطول انتظار ثمارها، وأن الجهاد يأتي في الوقت الملائم، لا بإرادة الزارع أو إرادة من ينتظر الجني السريع، وقد يفلح المصلح بالاقناع كما قد يفلح أحيانا بالوازع الديني أو بقوة القانون.

عاش في مصر مصلحون كالمرحومين الشيخ محمد عبده وقاسم أمين. وكانت آراء الرجلين في الإصلاح واضحة جلية، وكان أحدهما مرتكنا على قوة الحكومة، فأصلح بالقوانين وكان الثاني معتمدا على الرأي العام فأصلح بالقلم واللسان ونجح هو الآخر. لأن مشروع إصلاحه كان أعم وأقرب إلى طبقات الأمة. ولو أخذ أحدهما طريقة الآخر لفشلت فشلا تاما. فهل كان إصلاح الازهر الشريف والمحاكم الشرعية بالمقالات والخطب ممكنا؟ وهل كان يمكن تحرير المرأة بالقانون؟! إذن يتتج من هذا أن لكل إصلاح طريقة خاصة. وخير الوسائل هي التي تجمع الرأي الجيد والاقناع والقوة المنفذة. لا تكفي رغبة الخير،

ولا النية الحسنة ، ولا صبغ الجميل ، ولا يكفى الكلام البليغ ، ولكن يكفى و يفيد أن نعلم حقيقة الاصلاح المطلوب ثم طريقة تنفيذه ، وعلى قدر ما يمكننا يجب اتقاء التجاريب وتكرار الاختبار ، فلا خدعنا ظواهر الأمور . بل علينا أن نعمد الى اللباب ، ولا نجرى وراء التقليد ، فإن ما يصلح لبلاد معينة ، أو شعب بذاته ، قد لا يصلح لبلاد أخرى ، لأن كل إصلاح يتم فى مصر لا يجوز ولا يصح أن يخلو من طابع أخلاقنا وعقائدنا ، ووسطنا ، ومزاجنا وعاداتنا وتقاليدنا وتاريخنا القديم والحديث .

لا شك أن الأمم التى تعيش فى توازن عام لا تشعل بالها بالإصلاح بقدر الأمم التى تشعر بأنها فى حالة اضطراب اجتماعى ، ويمكنك أن تسمى هذا الاضطراب تحولا ، أو تطورا ، أو فترة انتقال ، فهذه التسمية أو تلك لا تغير من طبيعة الأشياء . فقد ثبتت بعض الأمم كالصين و مدنيتها على وتيرة واحدة مدة طويلة جدا ، لأن شرائعها كانت تمنع اختلاطها بالأمم الأجنبية ، فلما هاجر أهلها إلى أمريكا وهاجر الأمريكان اليهم ، انشق الحجاب الذى كان بينها و بين العالم ، وانهدم معنويا وماديا سورها الشهير ، فكل احتكاك عالمى يحدث تغييرا فى الأمم ، كما أن نمو السكان وتفاقم الثروات واندماج الجماعات والتطلع الى التقدم بالتقليد والاقتباس تقلقل عادات أية هيئة اجتماعية وتقاليدها ، وتزعزع التوازن فيها ، لأن كل مجتمع واقع تحت منازعات متعددة كحياة العواصم وحياة الريف وتجمع السكان وتوزعهم ، وازدحام الأماكن الآهلة فى دائرة العمران أو اتساع تلك الدائرة على مزدحم السكان ، وتغلب الحركة الصناعية والاقتصادية أو الحركة الحربية وتجمع الثروات وتعدد الأديان واللغات واختلاف الطبقات علما وجهلا وغنى وفقرا وصحة ومرضا . وقد يكون فقد التوازن مضرا و تصير هذه النزعات مؤذية و يصبح الاضطراب و بيلا اذا لم توجه تياراتها توجيها حسنا لتجديد الحياة فى المجتمع وتنويع أساليبها وايجاد فرص دائمة للأفراد يجربون فيها مواهبهم وكفايتهم ونشاطهم .

جاء زمن كان يظن فيه أن لاصلاح الاجتماعى مقصور على زيادة الثروة والنجاح المادى اعتمادا على أن المال حلال العقد ، ولكن هذه الفكرة أخذت فى الزوال ، وتصدى كثيرون لمقاومتها ، فلا إصلاح ما لم يكن الرخاء عاما واليسر شاملا ، أما وجود أفراد أو شركات أو جماعات غارقة فى المال الكثير ووجود مجموع الأمة فى ضيق وعسر وشدة فلا يتأتى معها إصلاح البتة .

وقد كانت إيران منذ أربعين عاما كثيرة الغنى ، فقد روت مسز شوب فى كتابها (ملوك الناس) أنها دخلت فى عهد الشاه مظفر الدين دار الكنور فوجدت مائدة مغطاة بالذهب حولها صناديق من البلور ، على موائد من المرمر وفيها جواهر الشاه ، وكنوز المملكة من الماس واللؤلؤ والياقوت والزمرد والأسلحة المرصعة بالأحجار الكريمة ، حتى أن الناظر

ليظن أنه فى حلم لا فى يقظة، والجواهر مكومة أكواما ومكدسة تكديسا كأنها عرم الشاى أو الذرة ، وهناك كثرة من الذهب الخالص تمثل الأرض . وكوم من النقود قيمة كل قطعة ٣٣ جنيها ، دع عنك العرش والتاج الخ . ولكن هذه البلاد كانت فى تلك الآونة تئن من الفقر والجهل والظلم فلما نالت بعض حريتها وحقوقها وتبدد معظم هذه الثروة تحسنت أحوال الامبراطورية الايرانية

وذلك لأن الاصلاح الحقيق ليس فى تكويم الأموال ولكن فى حسن توزيعها والانتفاع بها واستعمالها فيما جعلت له . وكذلك الاصلاح الاجتماعى فى ترقية النفوس وتغذية الأرواح وتقويم الاعوجاج وتعديل الأخلاق العامة والخاصة.

والاصلاح الاجتماعى أولا وقبل كل شىء رغبة شديدة واستعداد عقلى وصبر طويل وتجربة عند المصلح فلا يضعف ولا يقنط ولا يغضب ولا يمل من تناول المسائل من جميع نواحيها . وأكبر همه أن يتقى عداوة الطبقات والاستهتار، فان عداوة الطبقات ولدت الاشتراكية المتطرفة والشيوعية والحروب الداخلية، كما حدث فى اسبانيا، والاستهتار واللاباحية أماتا الارادة وجلبا اليأس وضعف الوطنية والجبن القومى، وهى التى سببت الخراب لفرنسا .

وفى مصر مواطن كثيرة للموعظة والاعتبار، ولكن يؤلمنا أن الأمة معرضة عن الموعظة والاعتبار وبعض الناس سائرون كالمخلوقات المخدرة بالبنج لهم أعين لا يبصرون بها وأفئدة لا يفقهون بها وآذان لا يسمعون بها . وفى القرآن الكريم وصف بليغ لهذه الحالة الأليمة .

ويؤيدنا فى هذا الرأى المستر كارنجى المليونير الأمريكى الشهير، كتب فى مجلة أوتلوك ونقلت عنها مجلة المجلات الانجليزية الشهيرة ما نصه :

"ان الغنى متوزع الآن توزعا ليس فيه شىء من المساواة ولا من الانصاف، ولابد للناس من أن يسنوا قانونا لتوزيعه بالقسط، وهم ينظرون فى ذلك الآن. بدليل ما سمعناه بالأمس من كلام روزفلت رئيس الولايات المتحدة حيث قال "يجب على أهالى الولايات المتحدة أن يبحثوا فى المسائل المتعلقة بتوزيع الأموال الوافرة التى جمعها بعض الناس، واستخدامها لما فيه النفع العام والخاص. ويجب علينا أن نميز بين الأموال التى كسبها أصحابها بطريق الحلال ، والأموال التى كسبوها بطرق الحرام وبين الأموال التى كسبها ذووها وهم يخدمون أبناء جلدتهم خدمات كبيرة نافعة، والأموال التى جمعها ذووها بطرق غير محللة ولكن سلطة القانون لا تصل اليها، وهذه الأموال لا تصير رزقا حلالا مهما انفق منها فى سبيل الخير والمبرات، قال كارنجى : وأنا أوافق الرئيس على هذا القول كله ، ولقد مر الآن سبع عشرة سنة منذ كتبت فى هذا الموضوع فى مجلة أمريكا الشمالية، ولذلك لا أرى وجها لحرمان الأمة من جانب كبير من أموال الأغنياء حينما يموتون بل من الجانب الأكبر منها ما دام نمو الأمة هو السبب الحقيق لزيادة هذه الأموال "

ومن وسائل الإصلاح فى مصر النقد لبعض الأخلاق والعادات والمخالفات الصارخة كالتى انتجت فى العهد الأخير، وصفه معالى وزير الشؤون الاجتماعية بالحفلات الخليعة فى اذاعة حميدة، فقد استنكرها كل الاستنكار ووصفها بأنها معاول لهدم كيان الاسرة والقضاء على استقرار واستقرار السلام بين أفرادها، ووصف أصحابها بأنهم مستهترون ، ورجا المجلات الأسبوعية ألا تشجعها بالكتابة ونشر الصور وأنهم موضع النظرة القاسية من الفضلاء ومن العقلاء الذين ينقمون على الأغنياء المستهترين إقامة هذه الحفلات الخليعة. فنشكر الوزير على هذه الخطة القويمة فإنه يقوم بنفسه بإحدى طرق الاصلاح عن طريق الخطابة والإذاعة .

لقد لمس الوزير هذا الموضوع من ناحية الأخلاق والاجتماع والاقتصاد ، وهناك من يلمسه من ناحية الدين والفضيلة فيطلب من المترفين والمنعمين وذوى اليسار أن يتقوا الله فى دينهم ووطنهم وأخلاقهم فيتجنبوا طريق الشيطان ويقلعوا عن الغى ومحاكاة الأشرار ويخافوا الله فى الأعراض المباحة والاجساد الرخيصة فى سوق المراقص ومباريات الأزياء ومسابقات الجمال ويحتى بالملائمة على المجلات الأسبوعية التى تجد رواجا كبيرا فى نشر صور زوجات بعض المشاهير. وقال آخر إن حفلات الكوكتيل كل يوم وليلة أصبحت ضرورية لأن كل منزل فيه بار أمريكانى !

وهذه الطريقة أو الوسيلة من وسائل الاصلاح الاجتماعى التى لجأت اليها الوزارة و بعض رجال الدين ناجعة بوصفها إحدى الوسائل التى تجربها الوزارة، ولكن هل هى مضمونة النتيجة فى قوم فطروا على التقيد وإذا أرادوا أن يقتبسوا فإنما يقتبسون أسوأ الأشياء و يتركوا محاسن الأخلاق والعادات؟ قد يلجأ معالى الوزير الجديد الى الاستعانة بالتشريع اذا لا سمح الله رأى أن الخطابة والكتابة والاذاعة لا تجدى، وقد لجأت دول كثيرة الى التشريع وحالة الحرب التى فيها العالم تعين على ذلك . وقد يستعان بنقابة الصحافة التى غايتها ترقية المهنة وتنظيفها وجعلها أداة صالحة للاصلاح والتثقيف لا التحريض على الفساد للحصول على دخل كثير من ايقاظ الأهواء والشهوات وتشجيع الاستهتار . أشار معالى الوزير بوضوح الى خطر كبير اذ قال "هؤلاء الفقراء الجياع تمتلئ نفوسهم حقدا واشمئزازا أو يثيرهم الشعور الخفى بأن أولئك المترفين الأثرياء يتمتعون و ينعمون بما هم فيه من عبث وهم (أى الفقراء الجياع) لا يجدون القوت أو الكفاف من العيش فيغلى فى صدورهم الغيظ من المجتمع و ينقمون عليه" اه كلام الوزير الحكيم الذى دل به على بعد النظر وعمق التفكير فقد جمع ما يسميه العلماء بالمسألة الاجتماعية Question Sociale فى أوجز عبارة وأبلغ تبيين .

كان التعاون ، وهو إحدى وسائل الإصلاح الاجتماعي موضع اهتمام وزير الشؤون في خطابه القيم في مجلس النواب ، وكان كثيرون من المصلحين والمفكرين يرون أنه العلاج الأوحد للإصلاح ، بدليل ما رأوا من نجاحه في بعض ممالك أوربا كهولندا ، والدانمرك وجمهورية بلجيكا ، وعندما صدر مرسوم انشاء وزارة الشؤون وحدد أعمالها كانت مهمة التعاون من أهم مبررات وجود الوزارة ، ولذا اهتم به الوزير الحالي اهتماما عظيما . ولكن التعاون موجود في مصر منذ ثلاثين عاما ، وقد قيل في تعيين حالته الراهنة إنه عدم وجود برامج ثابتة للاصلاح لأن الفكرة تطرح وتبحث ثم لا يفكر أحد في تنفيذها ، وقيل أيضا إن قانون التعاون نفسه هو من أسباب تأخر التعاون وكذلك تأجيل الاصلاحات التي اقترحتها اللجان والخبراء وكانت الجمعيات التعاونية تزيد بنسبة ٢٠ ٪ ثم نقصت حتى وصلت الى ٣ و ٢ و ١ ٪ وتقدم اقتراح لمحاربة الفقر والفاقة بأن تتولى الجمعيات التعاونية جمع الزكاة من الأهالي للإنفاق على الفقراء وتحسين حالتهم كما يجمع رئيس الجمعيات التعاونية في هولندا جميع الضرائب المقررة ويقدمها للحكومة .

ولكن نحن في مصر لا في هولاندا ! ووزارة الشؤون حديثة العهد بل وليدة ، والوزير الجديد لم يمض عليه زمن كاف لتنفيذ خطته . أقول بأننا في مصر لا في هولاندا ، لأن أحد الرجال المسئولين في أمر التعاون قال للنائب المحترم محمود ذو الفقار "بالله دع التعاون يموت فقد جنى على الكثير من العائلات البارزة في مصر" لسهل لهم الاقتراض فاقترضوا فاستدانوا فعجزوا عن السداد فخربت بيوتهم فالقروض ، أرأيت مأساة كهذه .

وقال النائب نفسه إن التعاون أداة يستعملها بعض الأفراد الذين يتزعمون بعض الشركات للنصب والاحتيال . ويجب على الذين يريدون أن يحكموا على التعاون بنتائجه الظاهرة المشاهدة ، لا بدرس بواطن الداء لالتماس العلاج ، أن يذكروا أن التعاون حركة اختيارية بحتة لا إجبارية ولا شبه إجبارية فهو محك أخلاق الأمة ومقياس تكافلها وتقديرها قبل أن يكون مظهر لقدرة الرجال الرسميين ، وقد بلغ عدد الجمعيات ٨٠٠ أفلس ثلثها والثلث الثاني في طريق الافلاس والثلث الأخير في حالة تنازع البقاء بين الحياة والموت . إن فكرة التعاون نفسها لا عيب فيها ، لأنها نجحت في بلاد أخرى نجاحا أنقذ أممها من الخراب والإفلاس مما علينا إلا أن نصبر وأن نمد يد المعونة للقائمين بشؤون التعاون ، وإذا احتاج قانون التعاون إلى تعديل فليعدله الوزير ، وإن حدث بعمال بما سبق لاقتراحات اللجان والخبراء على مدى عشرة أعوام فليرجع إليها المسؤولون ، ولنفكر مرات ومرات قبل أن نلقي بالتعاون من ظهر سفينة الدولة باعتباره حملا ثقيلا يعطل حركتها أو يعوقها عن الوصول ، فليس كل شيء يضعف الآمال في أول أمره جديرا بأن يهمل شأنه ، فلعل قليلا من الإصلاح والانتباه يعيده الى النفع والمصلحة .

عندما اعتقدنا إمكان الاصلاح امتلأت قلوبنا بالأمل والعزم والنشاط وأخذنا نكافح جهد استطاعتنا ونتخذ من أمنا مادة لحياتنا وندفع بأرواحنا رخيصة فى سبيل المثل الأعلى ونتساءف ثقتنا بأنفسنا . وفجأة طغت مظاهر المدنية الغربية على البعض منا فأذهلت عقولهم وسحرت ألبابهم بما قهرهم مظهر أدوات الترف الصناعية المبتكرة وأصبحت غايتهم من الحياة إحراز هذه الأدوات بكافة الوسائل فأقبلوا عليها فى رعونة الطفل وطيش القاصر اقبال الصغار على اللعب . فمعظم ما نراه من اضطراب وانقلاب وتحول وانحلال وانحطاط راجع إلى هذا السبب لأن مظاهر تلك الحياة المادية الخلابة دفعت بهم الى حب الذات وحب التمتع والوصولية وعبادة المال ، فلم يجد المصلح الاجتماعى موضعا لقدمه ولا مستمعا لكلمه ولا مقدرا لفكره لأن الاصلاح الاجتماعى يتطلب التضحية والتضحية معناها احتمال الألم والإعراض ولو مؤقتا عن مظاهر النعيم ، فأصبحنا بين روعة الرفاهية وشقوة التضحية نتلفت فلا نجد بيننا أولئك الأفراد الممتازين الذين يقودون الأمة فى طريق النجاة ، هؤلاء الأفراد الممتازون المصلحون يتقدمون الصفوف و يقدمون القدوة الحسنة فاذا لم يوجدوا تراخى همة الشعب وتبرد حميته وتذهب نخوته وإذا تركنا جماهير المستضعفين والمشغولين بكسب الكفاف والمرغمين على العمل المضنى فى سبيل القوت والتفتنا الى جمهور المثقفين والمستنيرين وجدناهم مفتونين بالمناظر البراقة متهافتين على الحياة الخلابة ، أكثر انشغالا بأنفسهم عن المحاويج والمعوزين ، وهم أحق الناس بالإقبال على التضحية فى سبيل الاصلاح ، لأن كل ما قامت عليه حضارة الغرب التى جذبتهم إنما هو الاصلاح والاصلاح هو التضحية والخلق العظيم والعقيدة الثابتة فى تحقيق فكرة الخير للمجموع بالنزاهة والصراحة . والمصلح هو الذى يحب الحياة لا لنفسه ولا لبدنه ولكن يحبها لإصلاح وطنه ، نحب الحياة لنعيش فى المجتمع ولا ندرك أنه لو قضى على المجتمع لقضى علينا أيضا . فأساس الاصلاح الاجتماعى فى أوربا وامريكا هو أن يعيش المجتمع ليضاعف القوة وأحياة الأفراد . وأساس الاصلاح فى مصر أن تعيش القرية المصرية والاتكبر المدينة وتتضخم وتتغذى على حساب القرية . وألا يغتنى ابن البلد ويصح ويسعد ليفتقر الفلاح ويضعف ويشقى ، فكلما فقد التوازن بين الريف والمدن دنونا من الخراب بخطى واسعة ، وكلما اقفرت العزب والأباعد والكفور ، وأظلمت الأكواخ والأخصاص وهجرت المساكن الصغيرة التى كانت آهلة عامرة ، هزلت الحياة القومية وتضاءلت ونضب معينها وضمرت أعضاء المجتمع ضمورا ينذر بالهلاك . فاذا لم تصلح القرية والريف حبا بالانسانية أو قياما بالواجب نحو أصل الوطن ومصدر ثروته فلتصلح حفظا لكيان الحياة نفسها ، أما إهمالها فدليل على أننا مبنجون مخدرون نائمون على وجوهنا لا يمتد نظرنا الى الأمام بضع خطوات .

ولذا كان اغتباطي عظيما باهتمام الوزاره باصلاح القرى واعتبرتها بداية حسنة وفاتحة خير. ولكننا لا نكتفى بالنماذج والمشاتل والبرامج بل نريد العمل الدائم والتطبيق والتحقيق ، وهذه حالة مما تحتاج الى التشريع .

قد يسأل سائل فاضل عن بعض الوسائل التى تنفع الريف خاصة ، ذلك الريف الذى لا أذهب إليه إلا وأعود آسفا كاسف البال ، جاء فى وثيقة شبه رسمية ما نصه "قيل الكثير عن حالة الفلاحين التعسة ولقد كان ذلك فى بعض الحالات هو القسم الوحيد الصادق فى أقوال الخطباء ، فكل من له عينان مبصرتان يعرف ما هى حالة الفلاحين الحاضرة ، ولكن الذى يدعو الى الدهشة هو أن ينتحل حق الكلام باسم الفلاح ولمصلحة أناس هم الذين يملكون وسائل رفع الحيف عن الفلاح ولا يفعلون "

* * *

اذا سئلنا عن بعض وسائل الإصلاح للفلاح فلنعلم أولا أننا فى حالة تدعو الى الإسراع فى العمل بمثابة الإسعاف . فعندنا أولا واجب المحافظة على مسكن الفلاح والعمل على تأمين حياته بنوع من التأمين التعاونى الذى لم يفكر فيه أحد ، ومنها التكليف الأدبى التطوعى لعلماء وأطباء ومهندسين ورجال القضاء والادارة وأساتذة مدارس أن يزوروا ويجوسوا خلال الديار والحقول ويقدموا آراءهم حسبة لوجه الله الكريم والانسانية والوطن لوزارة الشؤون لتفحصها وتستنير بها وتنفذ منها ما تستطيع ، وهذه طريقة متبعة فى أمريكا وأوربا واليابان وتركيا ، وقد فكر جلالة الملك وحده فى سد ثغرة الحفاء وهو مثال يحتذى به ، ومن الوسائل إلزام كل قرية أو زمام بإعالة فقرائه على قدر الإمكان بنوع من الإحسان الجبرى المنظم واقتران العناية بالناشئين بعناية أخرى لا تقل أهمية وهى العناية بالعجزة والشيوخ .

غريب أن نعرف الإحصاء ويكون له ديوان منظم ولا نستفيد به ، والإحصاء قد دلنا بأرقام ناطقة بليغة لاذعة أن مليونين ونصف فقط من سبعة عشر مليونا يملكون أرضا زراعية وأن من هذين المليونين ونصف ، مليون وثلاثة أرباع المليون يملك كل منهم أقل من فدان وأن ١٢ ألف شخص فقط يملكون ٢ مليون و ١٨٠ ألفا و ٢٠٣ أفدنة أى أن ١٢ ألف شخص يملكون ٣٨ ٪ من أرض مصر المنزرعة والكتلة العظمى من الفلاحين لا تملك أرضا على الإطلاق ، فكل الذى نطلبه للفلاح هو تمكينه من الحياة لئلا يموت جوعا وعريا ومرضا فيندم الذين يملكون ٣٨ ٪ من أرض مصر أشد الندم . إن الحياة باقية فى مصر منذ بضع سنين إلى الآن بفضل قوة الاندفاع والاستمرار ، ولكن هذه القوة ليست طويلة الأجل ولا بعيدة المدى ، إن أهل المدن يتمعضون لغلاء المعيشة ويبالغون فى وصف الضيق من اختفاء البطاطس وندرة الكبريت ، مع أن المثل مضروب بندرته من قديم الزمن ،

وارتفاع أثمان البترول والفحم والسمن الخ فما بالهم اذا أصبح القمح نادرا وانعدم الخضر ؟ ألا فليعلموا أن كل يوم يمضى بدون إسعاف الفلاح يقربهم من هذا الوقت العصيب الذى ينعدم فيه كل شيء .

* * *

كان أساس الإصلاح الاجتماعى فى بلاد العرب بطريق الدين ومظهره القرآن والسنة وحياة الرسول وأخلاقه ثم أصحابه ، وفى بلاد اليونان القديمة تم الإصلاح بالفلسفة والشعر والحكم الديموقراطى ، وفى رومة العتيقة تم الإصلاح بقوانين جوستنيان ، وفى أوربا الحديثة عامة بنقل فضائل العرب وعلومهم فخرجت من ظلمات القرون الوسطى إلى نور الحضارة

ومن أهم وسائل الإصلاح الناجحة فى العصر الحديث ماقرره كوتوكو اليابانى فى كتابه نهضة اليابان الحديثة .

" الفضل لأسلافنا الذين درّبوا قوانا العقلية فى مئات وألوف السنين ، فقد واظبوا على ترقية عقولنا فسهل علينا الانتفاع بكل إصلاح ، وكنا دائما أمة متمدنة وعمرانيا مرتقيا وإنما كان ينقصنا أن نطبقه على مطالب هذا العصر ، فعلينا أن نتعلم كل فروع الإصلاح ونتمسك بالنافع منها ونترك ما لا نفع فيه فتزيد قوة ومنعة ، وأساس نجاحنا فى الإصلاح هو أن يضحى كل إنسان بمصلحته الخاصة لأجل مصلحة بلاده ، فإن الأثرة تمنع الاتحاد ولا يعمل عمل عظيم من غير اتحاد . وحيث شرائع البشر أن يجازى المحسن ويعاقب المسيء ، لأن التدليس والخداع يقوضان أركان الدولة ويزهقان روح الأمة ولا عون بلا ثقة ، والثقة لازمة لكل عمل ، واذا زالت الثقة بين الحاكم والمحكوم فسدت الأمور كلها .

وقد كان من أثر هذه الآراء أن قررت حكومة اليابان فى أواخر القرن الماضى المبادئ الأربعة الآتية لتكون أساسا للإصلاح .

(أولا) أن تدرس مبادئ العلوم الاجتماعية والاقتصادية ، يدرسها الشعب كله خاصته وعامته . (ثانيا) أن يسهل لكل أحد أن يعمل كل ما هو صالح وجائز . (ثالثا) أن تلغى كل الرسوم والشعائر القديمة التى لا تنطبق على قواعد العقل ، ويجرى فى إدارة البلاد على حسب النواميس الطبيعية والاجتماعية . (رابعا) أن يفتش عن العلم والحكمة فى كل أقطار المسكونة لكى يقبسا ويجعلا أساسا لبناء السلطنة الناهضة .

وهذا المنهاج الواسع النطاق الذى يؤيده القانون والتنفيذ بالقوه هو الذى سهل للأمة أن تسير فى أوسع طرق الإصلاح فجعلت تتسابق الى الرقى الاجتماعى المطلوب وغرضها كلها واحد وهو توحيد القوى وسعادة الأمه .

لقد اختصت الطبيعة كل وطن من الأوطان بأحوال لاصقة به متصلة بحياته اتصالا وثيقا، فكان لكل وطن سبيل الإصلاح الاجتماعي. فكانت انجلترا من الأوطان التي نجح فيها التعاون، وانتفعت فرنسا بتنظيم الإحسان وتوسعت روسيا في مبادئ الاشتراكية الحكومية وتم الإصلاح في أمم الشمال كالسويد والنروج و لدانيمرك وفنلاندا بتعميم الثقة الأخلاقية كما حاولت حكومة الولايات المتحدة الإصلاح بمحاربة التعطل من العمل، و إطلاق الحرية إلى أقصى حدودها وتقوية التعليم الجامعي وإشراك المرأة ، إشراكا حقيقيا في الحياة .

وامتازت اليابان بالارتكان إلى الأخلاق القومية الموروثة كالإيثار وحب الوطن وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، ثم تقليد أوروبا وأمريكا تقليدا شكليا لا حقيقيا لتنال المساواة الظاهرة . أما أداة العمل الداخلي فهي المحافظة على الفضائل الوطنية القديمة كما أوضحنا عن رأي الأستاذ كوتوكو. وأفلحت تركيا فلاحا كبيرا باتخاذ وسائل قوية فغيرت البيئة ونقلت الحكومة من مقرها القديم وبدلت شكل الحكم وأدخلت القوانين الأوروبية بحذافيرها . فظهر للحال فيها رجال قادرون على مماشاة النظم الجديدة وأصبحت دولة في صفوف الدول الكبرى حضارة ونفوذا .

وانزلقت أسبانيا في عرك عنيف بين الاشتراكية وحكومة الفرد، فوقع اجانب الأكبر من الخسارة والمتاعب على كواهل الأمة نفسها، لأن الأسبان لجأوا للقوة وابتدأوا إصلاحهم بنظرية الحكم لا بتقويم الاعوجاج .

أما سويسرا فمن البلاد التي حبتها الطبيعة مركزا وسطا، فصارت مسرحا عالميا ومعرضا أرضيا لأحوال جميع الشعوب ورأت الإصلاح في تمام الصلاح والاستكانة والمحافظة على العقائد والأخلاق و تقان فنون الخدمة البيتية وجعل الحقول متاحف والمراعي مسارح والمدارس معارض ، فحاربت الأمية وعالجت أمراض الشعب وجعلت من فضيلة الاتحاد قوة للنهوض وفرضت المساواة على الجميع ، وكبتت شهوة الطمع فيما بين أيدي الأغيار ، وبالجملة كان إصلاحها في اتباع مبادئ مصلحها " كالفن " الشهير الذي لم تنجب بعده رجلا عظيما .

وقد اكتشفت طريقة عجيبة في الولايات المتحدة للإصلاح ، وهي زيادة ثروة الأمة عن طريق العقول القوية ، فبحثت الحكومة الأمريكية عن النوابغ في المدارس و لمصانع والحقول والمراعي . وانتقت منهم المئات . وجعلت لهم مدارس خاصة . وقاست ذكاء كل طالب نافع ، وفحصت ميوله الخاصة وفتحت ديوانا حكوميا لفحص الأفكار، وقررت " لا تضيع على الأمة ذرة من الذكاء وقد قال أحد أصحاب هذا الرأي " كما بحثنا من خمسين سنة عن الذهب ، فكان معظم ما وجدناه منه في المناجم محض المصادفة . فلا نفرط في النبوغ

فإن الاجتهاد والصبر والمصادفة كفيلة بمكافأة جهودنا "، وفعلا تحققت كهانة هذا الرجل واستفادت الأمة. وفى بعض أمم الشرق يبقى ذوو الاستعداد النافع راقدين حتى تتعفن مواهبهم وتعجزهم الوسائل عن أداء خدمة لأوطانهم . لقد استفاد رجل أوروبى بمواهب ألوف من فتيان المصريين فى النقش والتصوير فأسس لهم مصنعا واستغل مواهبهم وأثرى بسببهم .

وأنجع الوسائل للإصلاح الاجتماعى لما يلائم البيئة والتاريخ والعقائد والأخلاق ، وأول الشروط أن يكون للأمة المصرية " مثل عليا ترمى إليها وغاية سامية تسعى لتدركها " .

وليس ينفعنا فى قليل أو كثير أن نتخبط فى التقليد أو نترامى على أشباح المبادئ البالية فالقديم تجب إزالته إن كان الاستغناء عنه ممكنا ، والقابل للترميم نرممه ونصححه ولا نهمله والمفقود المعدوم نوجده ونفديه . وعلينا خاصة أن نحذر النظريات ونبتعد عنها ، كما نحذر كثرة الكلام فنقصيها من مناهجنا ، وأن نلجأ فورا إلى العمل ، فإن العمل وحده هو العلاج الناجع والطريقة لقياس ما يمكن تطبيقه وسبر غور كل ما نحن فى حاجة إليه .

قد يكون فى العمل والتنفيذ بعض الخطأ و بعض الخسارة فى أول الأمر ولكن هـذا الخطأ وهذه الخسارة لا تخيفنا لأنها أثمان بخسة جدا لما نربحه ويعود علينا بالفائدة .

محمد لطفى جمعه

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ

[قرآن كريم]